المكاري والكاهن

امين الريحاني

رجل دين... ورجل دنيا...

بعض مؤلفات امين الريحاني

فيصل الاول

ملوك العرب (جزآن)

الريحانيات (٤ اجزاء)

اتم الشعراء

جهان

تاريخ نجد الحديث *

التطرف والاصلاح

النكبات *

زنبقة الفور *

نبذة في الثورة الفرنسية *

المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية *

* * *

* المؤلفات التي امامها هذه النجمة نافدة . البقية تطلب من جميع المكاتب .

ومن مطبعة البرت الريحاني — بيروت —

obeikandl.com

الطارى والطاهن

obeikandl.com

الطبعة الثانية

obeikandl.com

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

اقدم هذه الرواية

الى الخوري ى . ى .

ذكرى جلسات جلسناها ، وآراء تبادلناها ، واغان رددناها ،
على موسيقى الساقية الفضية ، تحت صنوبرة هرمة ،
بالقرب من دير قديم مهجور ، في الجبل الذي
نرجو ان يعود اليه الذين هجروه من
ابنائه ، ويهجره ولو لمدة
قصيرة ، اولئك
الذين لم يروا
من العالم
سواه

المكاري والكاهن

القسم الاول

— عجل، يا اخي، عجل، العربة تنتظرني في الخان (١).

— حاضر، يا عم. ستة عشر غرشاً ومتاليك (٢).

دفع الرجل القيمة، واخذ السلع فربطها في منديل احمر كبير، ثم علقها في عقفة عصاه، وحملها على كتفه وهرول الى الخان.

هو من الفلاحين في جبل لبنان، اولئك الذين ينزلون الى بيروت من حين الى حين ليبتاعوا حاجات بيوتهم.

---

(١) كتبت هذه الرواية في العهد السابق لعهد البنزين في العالم.

(٢) وفي العهد السابق لعهد الفرنك في لبنان.

اسرعت، فاجملت، فقلت انه من الفلاحين، بينما ان مهنته الخاصة هي غير الفلاحة والزراعة. فهو من تلك الطبقة التي يحتقرها الناس، بالرغم من ان البلاد لا تستغني حتى الان عنها. نعم، هو من زمرة المكارين الذين يقضون في الفلاء معظم اوقاتهم، وفي خدمة اللبنانيين يجدّون وراء البغال.

يمتاز المكاري اللبناني بثلاثة كبيرة ما عدا الصغيرة. اولها: سبّ الدين. فهو مثل الجندي الانكليزي لا يحسن الكلام دون ان ينقطه ويحركه بالسبات. وثانيها: خفة الروح. فالنكتة هي غالباً في جيبه او على لسانه. وثالثها: الذكاء الفطري. هذه المزايا الثلاث تجعل المكاري مؤنساً مفكهاً. وقلما تجتمع كلها في غير المكارين. فقد يكون الوجيه ذكياً ولا يكون خفيف الروح. وقد يكون الراهب مزّاحا ولا يكون ذكياً. وقد يسب الفلاح الدين وهو بليد ثقيل الدم. على ان هناك

فلاحاً يدنو من المكاري في ما امتاز به وهو الشريك المرابح للدير. وهؤلا الشركاء هم غالباً اذكياء مجانون، ولا عجب، وهم المرابحون للادبرة، اذا كانوا كذلك يجدفون.

اما المكاري فهو يكثر من المسبات لان اكثر مشاغباته مع الحمير والبغال، وهؤلاء لا يعرفون من اساليب الجدل والاقناع غير انهم يحرنون ثم يرفسون. اما انه مجان، فذلك لان اكثر اشغاله هي مع الرهبان. واما ذكاؤه الفطري فان له اسباباً عدة خفية وظاهرة. فالخفية تترکها للعالمين بالغيب، ونذكر من الظاهرة ما هو، في نظرنا الضعيف، الأهم.

قلنا ان المكاري يقضي معظم وقته في العراء — في العزلة — في سكينة الطبيعة وجمالها — بين الجبال، وفي الاودية والسهول. فيكثر من مناجاة نفسه، ولا غرو، اذ ليس له في تجواله ان يحدث غير رفاقه. واصحاب المهنة

الواحدة اكفاء في نظر انفسهم فقلما يستفيد بعضهم من بعض.

والمكاري في سياحاته المستمرة يتعرف الى اناس من شتى الطبقات ويرى بلدانا عديدة جديدة، فيتسع جو نفسه ومعقوله، ويجتمع له كثير من النوادر والحكايات التي يفكهك بها في الطريق. اما انه محتقر فلأنه مفكه ومفيد، وقد تعود الناس ان يحتقروا من يفكههم ان كان على المسارح التمثيلية او في مسرح الحياة.

من المكارين وبغالهم تتألف السكة الحديدية التي تمتد في نواحي الجبل كلها. ولكن الفرق بين قاطرة المكارين وقاطرة السكة كبير. فالاولى اذا رفست تضر بصاحبها والثانية اذا رفست تضر بالشعب الذي تعيش على حسابه. الاولى لا تتذمر، والثانية لا تقنع. الاولى تمشي ساكتة، والثانية تسير وهي تقرقع وتضج. الاولى لا تتعب

من العمل والثانية تحتاج الى تجديد دائم في قوتها التجارية. في الاولى تتجسم فضائل الحيوان وفي الثانية تتمثل مطامع الشركات التي يؤسسها الانسان. فاذا شئت ان تكون سعيداً موفقاً فاسأل الله ان يجمع فيك من طباع الحيوانات اخلاص الكلاب، ووداعة الغنم، وثبات النمل، ونشاط البغال.

القسم الثاني

نستأنف الان القصة ـ او بالحري نبدأ بها ـ فنعود الى المكاري الذي هرول من الدكان الى الخان، ليركب العربة التي تصعد الى الجبل مرة كل يوم. ولا بد قبل ان نباشر القَصَص (١) ان نزيد القارئ علماً بهذا المكاري الذي كان يمتاز عن اخوانه بغير الامور التي تفلسفنا في ذكرها. فاذا كان اخوانه يجوبون الجبال والسهول اللبنانية والسورية، فهو قد قطع البحار، وساح في ما وراءها من الديار. واذا كان زملاؤه يمشون وراء بغالهم، وقلما يركبون العربات، فابو طنوس مكارينا اعتاد ان يسافر في السكك الحديدية،

(١) كان ينبغي ان نقول: القصة. ولكننا آثرنا هذا المصدر من قص لنبرهن لزملائنا المجددين اننا نحسن شيئاً من الاعراب.

وفي المركبات الكهربائية، في البلاد الاميركية، فتعطلت لذلك رجلاه، او كادت، وصار يبذل ثلاثين غرشاً غير آسف كل مرة يزور المدينة. اذا كان القارئ وصل معنا الى هذا الحد راضياً، فلا نظنه غير راض اذا زدناه من وصف ابي طنوس.

قلنا ان في المكاري ذكاءً فطرياً واستعداداً لاقتباس الافكار الجديدة والاقتناع بها. وقد تعلم ابو طنوس اثناء اقامته في نيويورك شيئاً من اللغة الانكليزية، فهذب الاقتباس والاقتداء ذكاءه الفطري. وكثيراً ما كان يحضر اجتماعات الاميركيين السياسية، بعد تجنسه بالجنسية الاميركية، وحوزه حق الانتخاب، فكان تأثير المهاجرة في عقليته كتأثير الهواء في النبات، والنور في الازهار.

هذا قول اجمالي في ابي طنوس. اما بالتخصيص فهو انه يكره القسس ورجال الدين كرهاً شديداً، وله معهم

فصول تذكر، وللقارىء ان يحكم في ما اذا كانت تشكر كذلك. ان اباطنوس لمن اولئك الذين سخروا من احد الكهان وزجروه لخطبة خطبها ليلة ٩ شباط المشهورة في تاريخ المهاجرة السورية (١)، وكان اذا حدثك في الكهان والقسس يختم دائماً حديثه بهذه الكلمات الثلاث:

تجنبهم تكن سعيداً.

جاء احد المرسلين يسأل اباطنوس يوم كان في نيويورك ان ينضم الى جمعية الطائفة فاجاب فوراً: «ما احلى الجمعية التي تكون انت رأسها ويكون ابو طنوس ذنبها! اليك عني

---

(١) وفي تاريخ المهاجرة «ففي تلك الليلة، الليلة التاسعة من الشهر الثاني من السنة الاولى لهذا القرن المجيد، التي مرّ لت هذه الرواية خطبته الاولى في «التساهل الديني» فكانت الضربة الاولى في حرب عوان بينه وبين رجال الدين دامت حتى الان تسع وعشرين سنة بدون هدنة تذكر، وستدوم الى ان يأذن الله لهذا الجندي بالاجازة الاخيرة»

أيها الكاهن . وعند ماسئل ان يتبرع بشيء لبناء كنيسة للطائفة هناك اجاب متهكما : يوم يتم بناء الكنيسة اقدم لها طبلا وزمرا »

رفع احد المرسلين في نيويورك عريضة الى رئيس الاساقفة يشكو فيها سلوك احد اخوانه المرسلين هناك ، فشارك ابو طنوس هذه المرة في توقيع العريضة ، ولكنه بعد ان فعل ذلك ذهب توا الى المرسل المشكو عليه فقال له : اذا رفعت عريضة ضد اخيك الكاهن فانا اوقعها بسرور ، انا مع كل كاهن يطعن في كاهن آخر .

ادعى رئيس الرسالة في نيويورك مرة انه اكتشف على سم في الماء المقدس عندما كان الشماس يصبه له في الكأس ساعة القداس ، واتهم احد معاونيه قائلا : يريد ان يقتلني ليفوز بمنصبي ، فاحدثت المسئلة شغباً في الجالية وشرع

كل سوري يبدئ رأيه فيها، فمنهم من قال ان رئيس الرسالة ناقم على معاونه، وهو يريد ان يخرجه من نيويورك باية طريقة كانت. التهمة باطلة والسم موجود في التهمة لا في الماء.

ومنهم من صدق الرئيس وناصره على المعاون.

ومنهم من اساء الظن بالمدعي قائلاً: الا يجوز ان يكون الرئيس نفسه وضع قليلاً من السم في الماء، ثم نبه الرعية اليه، ليتهم معاونه ويزيد باهمية نفسه؟

ومنهم من ابدى رأيه بمثل هذه السؤالات.

اذا صح انه كان في الماء شيء من السم فمن اين للكاهن ان يكتشف ذلك قبل ان يشرب الماء؟

واذا كان قد اكتشف السم قبل ان يذوقه أفلا يكون له سابق علم بالدسيسة.

وكيف لا يسيء الظن بالماء فيقول ان الماء عكر؟

اما ابو طنوس فلم يكن من المرتابين بسلامة نية الرئيس ، ولا من الذين صدقوا التهمة بغضاً بالمعاون ، او انكروها كرهاً برئيسه. بل قال: كثيرا ما يدس الرهبان السم بعضهم لبعض اما نكاية وتشفياً، واما طمعاً بمنصب رفيع. والكهان والرهبان فصيلتان من عائلة واحدة. فلا يستغرب اذا كانوا يحملون سمومهم الى نيويورك.

هذا هو ابو طنوس المتعصب على الاكليروس . ولم يكن في تعصبه لازما ساكتاً، بل كان متعديا متحركا. اي انه لم يكن يكرههم كره من يتجنبهم ويسكت، بل كان يكرههم، ويحمل عليهم كل ما استطاع الى ذلك سبيلا .

وان لبغضه هذا الشديد الاعمى اسبابا عديدة، سنكشف الستار عن اهمها. لم يكن ابو طنوس ليفرق بين الكاهن الفاضل والكاهن الفضولي. لم يكن ليميز بين التقي العالم،

والجاهل المحب لنفسه . ولماذا ، وهو الذكي الفؤاد؟ لانه لم يرَ في حياته كلها «اباً» يستحق الاحترام . لم يرَ قط واحداً من اولئك الافاضل خريجي مدرسة « البراباغندا» بروما ومدرسة « سان سلبيس ، بباريس اولئك الذين يقلمون اظافرهم على «الموضة» ويطيبون لحاهم ، ويلبسون الحذاء اللماع ذا البكلة المذهبة .

قبل ان هاجر ابوطنوس الى اميريكة كان مكاري دير من اديرة لبنان . فلم تتح له الفرص ان يتعرف الى غير القسس وبعض الكهنة القدماء الذين لا يحسنون الصلاة اذا هم غضبوا . وفي الولايات المتحدة لم يكمن ليرى غير المرسلين الذين شاءت حكمة البطريرك ان تريح الجبل منهم .

ومن المعلوم لدى العارفين بشووءن الاكليروس في الوطن ان الكاهن الفاضل ، العالم ، التقي ، النقي ، لا يرغب

في هجر وطنه . ولذلك اسباب منها ان الكاهن الفاضل طموح ، يريد ان يكون افضل مما هو — يريد ان يرتقي الى مقام الاسقف ثم الى السدة البطريركية . فاذا هجر وطنه ينبغي ان يهجر كذلك مطامعه الدينية والسياسية .

فمن اين لابي طنوس ان يدرك ذلك ، وكيف يعرف الكاهن الفاضل اذا كان خُبره وخَبره ما ذكرنا ؟ اما اذا قلنا ان ابا طنوس متحامل ، متعصب على الاكليروس ، فلا نقول اكثر من ذلك . لا نقول انه يلام . ولعله اذا عرف مثلنا بعض المحترمين ، اصحاب اللحى المطيبة والزنانير الارجوانية ، يلطف في تعصبه ويخفف من شنآنه . بيد ان لهذا الشنآن وذاك التعصب اسباباً طبيعية واجتماعية .

كان المرحوم والد ابي طنوس شريكاً لاحد الاديرة وكان دائماً يتذمر من معاملة الرهبان — من طمعهم ، وخداعهم

ابو طنوس

فهو قد قطع البحار وساح في ما وراءها من الديار

(ص ١٠)

وظلمهم واستئثارهم. هي ذي الافات القسّيسيّة التي اضرمت نار البغض في قلب الوالد، ولقنته اللعنات التي كان يتفوه بها على مسمع ولده، صاحب هـذه الترجمة، فشب الولد وفي قلبه اقباس من تلك النار التي كان ينفخ فيها ابوه. وكثيراً ما تكون النهضات الاصلاحية نتيجة ضرر شخصي وكثيراً ما يكون المرء مصلحا بالرغم من نفسه. اراد والد ابي طنوس ان ينتقم من بعض الرهبان لظلمهم له، فاشعل في قلب ولده بغض الاكليروس اجمعين. فهل افاد نفسه؟ كلا. وهل يفيد امته؟ ان في هذه القصة الجواب.

هاكم السبب الطبيعي لبغض ابي طنوس. اما الاسباب الاجتماعية فمنها وطنية ومنها اميركية، اما الوطنية فقد افضنا فيها وهي تتعلق بالاسباب الطبيعية. كان الوالد من مكاري الاديرة، فكانت معاملة الرهبان له أمراً للبغض الذي ولد في ولده.

اما الاسباب الاميركية ، فمنها شخصية وقد نشأت عن عن طبع مادي ، ومنها عقلية وقد نشأت عن مبدأ صحيح اكتسبه كما قلنا من مخالطة الاجانب ومن مطالعة الجرائد العربية التي تصدر في تلك الديار .

كان ابو طنوس تاجراً في نيويورك ، وكان شأن كل تاجر يحتاج في بعض الاحايين الى الدراهم ، ليدفع ما عليه في الاوقات المعينة . ولما كان ذات يوم في عسر مالي قصد الى الكاهن الذي كان يزوره في البيت وينادي امرأته « ياحبيبتنا » ليستدين منه مئتي دولار ، فرده الكاهن خائباً . وقد اعتذر اليه قائلاً : من اين للكاهن المال يا ابني ؟ وفي اليوم التالي جمعت الصدف الكاهن وابا طنوس في احد المصارف ، وكان الكاهن ساعتئذٍ يرسل مالا الى احد اقاربه في الوطن !

جرت العادة بين المرسلين ان يستودعوا التجار اموالهم « ويسمسروا » لهم بالتجارة . اي انهم يجيئون بالزبائن الى من يدفع لهم فائدة كبيرة على مالهم .

كان المرسلون يصدون ابا طنوس ويتجنبونه . فلم يستودعه احد منهم ماله ، ولم يجئه احد بالزبائن ، ولم يقرضه احد منهم شيئاً من الدراهم عند الحاجة . فلاعجب اذا كانت هذه المعاملة تمكن البغض في قلب الرجل .

اجل قد كره ابو طنوس الاكليروس لضرر في البدء جاءه منهم . ولكنه بعد ان مكث سنوات عدة في اميريكة واستنار قليلاً بنور الواجب الحقيقي ، غدا بغضه يتطور ويتحول فنشأت من دودة محبة الذات فراشة محبة الوطن . نشأ من البغض الذي سببه الضرر الشخصي بغض اوسع منه ، واعدل ، واعظم — بغض من اجل الخير العام . وكذلك

يصير طالب الانتقام محسناً من المحسنين. مثل هذه التطورة النفسية تحدث في كل منا، ولكن الذين يراقبونها ويحللونها قليلون.

يجب علينا قبل ان نتتبع قصتنا — وبالاحرى قبل ان نباشرها — ان ندون حقيقة اخرى. لم يكن ابو طنوس يطالع الكتب. ولكنه يوم كان تاجراً في نيويورك كان الكاتب المستخدم في محله يكاشفه من حين الى حين افكاره الخصوصية في المسائل الدينية والسياسية المهمة. والكاتب هذا شاب تلقى العلم في احدى مدارس سورية، فكان يحسن اللغة الافرنسية، وكانت له رغبة شديدة في المطالعة. وهذا عامل آخر من عوامل التربية. فالذي مكن عرى الصداقة بين ابي طنوس وكاتبه هو انهما اتفقا في النظر الى امور كثيرة، وخصوصاً الى الاكليروس.

والكاتب عرّف سيده بفولتير الذي كان يكثر من مطالعته ، وسلمه بالبراهين « الفلتيرية » على الطغمة الاكليريكية . فكان يسرد له تواريخ الاضطهادات ، ويحدثه دائماً في ما كان من جهاد الفيلسوف الافرنسي في سبيل الحرية والعدل .

ان هذا الكاتب ، والحالة هذه ، لمن المحسنين الى ابي طنوس . فقد ساعد في تكييف بغضه وتطوره ، فصار طالب الانتقام ، ممن ينشدون الخير العام .

القسم الثالث

اما وقد عرفنا القارىء الى ابي طنوس تعريفاً واقياً، فعلينا ان نقص القصة.

عندما وصل بطلنا الى الخان سبه صاحب العربات وقال: «اتريدان ننتظرك النهار كله؟ الا تعرف ان العربات تمشي قبل وقتها في هذه الايام؟»

ـ لماذا؟

ـ لماذا؟ لان القمر، يا عيني، موءخر مثلك الليله. هات الاجرة واركب. تحرك. عجل

دفع ابو طنوس اربعة بشالك وتقدم نحو العربة، فرأى فيها شخصا واحداً ذا لحية مستديرة تخللها الشيب، وبيده كتاب يطالع فيه. قد تكون الصدف شراً صرفا في بعض

الاحايين ، وقد يكون في الشر خير مستتر ، خصوصاً اذا كان مثل ابي طنوس رفيق سفر لاحد الكهان.

ولكن ابا طنوس ، عندما رأى الكاهن ، امتقع وقال في نفسه : الله يطرد الشيطان . ثم هم ان يركب فاتهره الحوذي قائلاً : اركب من هذه الجهة . الا تعرف ان المحترم يركب الى اليمين ؟

فاجابه ابو طنوس قائلاً : افضل ان اجلس الى جنبك .

= المجنون انت ؟

= نعم . انا مجنون .

= اذن اجلس جنب المحترم ، فيقرأ عليك ، ويطردهم عنك .

= الله يطرد الشيطان .

= ادخل يا ابني ادخل . قد تاخرنا .

عندما سمع ابو طنوس صوت الكاهن احس بشيء دخل على قلبه ، فانار قصداً فيه . وحمله مسرعاً الى مجلسه في العربة .

قبل ان سافر ابوطنوس الى اميريكه كان يقبل يد الكاهن ويدعو عليها بالكسر . اما الان فيدعو عليها ولا يقبلها . وقد حاول بعض اصدقائه المعتدلين ان يقنعوه ان بغضه الاعمى للاكليروس لا يساعد النهضة الاصلاحية بشيء ، وقد يضرها ، فما اقتنع ابوطنوس ، ولا انتصح .

قال احد الكتاب ان الفكر الذي يتسلط على المرء هو شبه مخرز يخرز في الدماغ ، وكلما طال عمله تمكن هناك . فاقتلاعه في السنة الاولى شبيه باقتلاع شعرة من الرأس وفي السنة الثانية بسلخ الجلد ، وفي السنة الثالثة لا يخرج بغير كسر العظم ، وفي الرابعة يستحيل انتزاعه الا اذا انتُزع

معه الدماغ.

فمخزن البغض للاكليروس في دماغ ابي طنوس لا يكاد يرى لعمقه. وقد مر على عمله ليس اربع سنوات فقط بل بضع عشرة سنة.

بعد ان جلس ابو طنوس في العربة، رسم الحوذي على صدره اشارة الصليب، وادار سوطه في الجو، ثم نزل به على الخيل وهو يتمتم قائلا: على نية الله.

صرير دواليب تجري في الاوحال، وصفير سوط يلعب في الهواء، ووقع حوافر الخيل، وصراخ بعض اولاد الازقة — هي الاصوات التي سمعها ابو طنوس وهو خارج مع الكاهن من المدينة.

اما الكاهن فلم يكن ليسمع شيئاً من تلك الاصوات لانه كان مكباً على الكتاب، كتاب الصلوات، الذي بيده.

ومن معجزات الكهنة انهم يستطيعون ان يصلوا دون ان يفكروا بشيء غير الصلاة . فلما انتهى الكاهن من عمله الصالح ، نظر الى رفيقه نظرة السيد الى خادمه وسأل عن اسمه ، واسم قريته . ثم سأله عن احواله فاجابه ابو طنوس قائلا : لو كانت احوالي كاحوالك ، ايها المحترم ، لما كنت اركب في العربة مع رجل لا اعرفه . بل كنت اقتني عربة خصوصية

ينظر الكاهن الى الناس نظر السيد الى عبيده ولا يحدثهم بغير اللهجة التي تناسب هذه العقلية الغير مسيحية الا اذا بدا من محدثه ما يستوجب الخروج عن القاعدة .

دهش كاهننا بجواب ابو طنوس ، فغير لهجته في الحال . اجل ، قد ازالت جرأة المكاري شيئاً من كبرياء الكاهن ثم حلت المباحثة الاخوية مكان الحديث التافه الذي يبدأ وينتهي بكيف حالك ، وكيف حال اهل البيت ؟

= أتظن يا ابني اننا اصحاب ثروة .

= اظن واعتقد واتيقن ذلك يا محترم ، انا اقول لك ان خيرات هذا الجبل كثيرة بالنسبة الى مساحته وحالته الطبيعية . وعندما كنت اركض وراء البغال ، واجوب الجبال من الطرف الجنوبي الى الشمال ، تحققت ان اغنياء لبنان « العوام » يعدون على الاصابع . وتحققت ايضاً ان العامة المؤلفة من شركاء ومكارين وفلاحين لا تملك شيئاً . فاين خيرات الجبل اذن ؟ بايدي من هي ؟ بخزائن من جمعت المجيديات والليرات ؟ من هم الذين يأكلون غلات الجبل ؟ أقسم بالله وبجميع القديسين اني صفر اليدين . مع اني كنت في اميركة وكسبت كثيراً من المال ثم خسرته . وانا الان لا رزق لي . وبيتي مرهون لشيخ القرية . ولست انا وحدي . اخواني في الفقر كثيرون . والرهبان الذين

اخدمهم كمكاري يزدادون غنى كلما ازددت انا فقراً . هم يسمنون وانا كما تراني اهزل . ولا اكاد أملىء بطني وبطون اولادي حتى امسي مديوناً للدير وللبقال والسمان في المدينة .

الكاهن : ارى ان اليأس متحكم فيك يا ابني . اذكر قول السيد المسيح ، ولا تحسد اصحاب النعمة ، ولا تشتهي مال قريبك . القناعة يا ابني كنز لا يفنى .

ابو طنوس: لا تحرك في السم يا محترم. اعلم اني سحت كثيراً ، وشاهدت كثيراً ، وافتكرت كثيراً . انت تقول لي : القناعة كنز لا يفنى . وانا اقول لك: ايها المداوي داوِ نفسك . ما اجمل امثالكم يا محترم ، وما ابعد اعمالكم عنها . امثالكم مثل الطعم تضعونه في الصنارة لتصطادونا به نحن الاسماك في بحر المجتمع الانساني . اني اعرف هذه الامور

كلها . قد سبرت غوركم ، واطلعت على خفاياكم ، وفتشت في زوايا قلوبكم ، وقلبت صفحات نفوسكم . اني اعرفكم كما اعرف بغلي . اني اعرفك ، ايها الرجل ! انت كاهن وانا مكاري . انت تسلك في الحياة السلوك الذي اساسه الكذب والرياء ونتيجته المداهنة والاستبداد — التدليس لمن هم فوقك والاستبداد بمن هم دونك . اما انا — انا مكاري . انا احد العامة . انا صفر الى الشمال . ولكني مع ذلك لا استحل سرقة شعير جاري لأطعم بغلي . انتم تبشرون بالقناعة وتجمعون في اكياسكم وصناديقكم المال . انتم تنهون عن الشر ، وقلما تعملون عملا مجرداً من الغايات الشخصية الخبيثة انتم تأمرون بالصوم والتقشف ، ومطرانكم لا يأكل غير الطيور ، ولا يشرب غير النبيذ المعتق . انتم تبشرون بالمحبة وتدسون الدسائس بعضكم لبعض ، طمعاً بالمناصب

والانقاب وطمعاً بالمال ، انتم تحثوننا على التواضع والوداعة ، ونحن نذكركم بشموخكم وكبريائكم. انتم تعلموننا الطاعة والخنوع ، ونحن بعد قليل نعلمكم كيف يكون الحلم مع القوة ، والوداعة مع السيادة ، والمحبة مع الحرية ، والعدل مع العلم ، والانصاف مع المساواة ، والنجاح العام مع الحكم الديموقراطي العام .

وقف ابو طنوس في كلامه ليشعل سيكارته ، ثم قال:

اراكم حاملين دائماً شبكة الصيد ، وفيها كلة منمقة او مثل سائر ـ فيها الطعم ـ للسمك الناطق ـ لذا نحن الرعية . ولكني اقول لكم : تحذروا ، تحذووا ، ايها الاباء المحترمون . قد أدركت الاسماك اسراركم ، وعلمت بنياتكم ومقاصدكم . وستجتمع ذات يوم على شبكتكم المقدسة فتسحبها الى قعر البحر وتسحبكم وراءها . لا انكر انكم بارعون في التبشير

بما لا تعتقدون ، وانكم ماهرون في ردعنا عما تتسابقون انتم اليه . انتم تنذرون النذور الثلاثة : الطاعة ، والعفة ، والفقر . هي النذور التي يعرفها الناس . ولكنكم تنذرون نذراً رابعاً ، وتنذرونه سراً . العفة ، والطاعة ، والفقر ، ثلاثة نذور . ثم تنذرون النذر الرابع وهو ان لا تتقيدوا بنذوركم . لا تؤاخذني ايها المحترم اذا صارحتك بما في قلبي وكشفت لك عن مكنونات صدري . منذ زمن طويل اترقب هذه الفرصة . منذ رجوعي من اميريكة وانا اسأل الله ان يجمعني بكاهن في البرية لافرّج عن نفسي في البرية لاني لا احسن التوبيخ امام الناس . لسنا معشر الفقراء مثلكم نوبخ علناً ليقال اننا من الصالحين الاتقياء . قل لي بالرب الذي تاكل جسده وتشرب دمه كل يوم ، هل انت من الصالحين الاتقياء ؟ هل انت وضميرك في وفق وارتياح ؟

هل اطعمت يوماً جائعاً ؟ هل كسوت عريانا ؟ هل اسقيت عطشانا ؟ هل آسيت مريضاً ، وهل اويت طريداً في حياتك ؟ لا تؤاخذني يامحترم اذا قلت لك ــ اقول ولا فخر ــ اني خلصت ذات يوم بغلاً من الموت . واقول ولا فخر اني افضل ان اكون مكارياً او راعي غنم من ان اكون كاهناً .

ــ يالك من شقي !

ــ اخطأت . انا يا محترم مكاري .

ــ الا تنتهي وقاحتك ؟

ــ انا عبدك المطيع يا محترم . ولكن يحق للعبد في هذه الايام ان يسأل السيد . فقل لي ...

ــ اصمت يا كافر .

ــ انا مسيحي يامحترم .

ـ قد احتملت منك ما لا يحتمله الله من ابليس فهل تريد ان تجربني اكثر من ذلك ؟ .

ـ اريد ان اذكرك ، ايها المحترم، باني مكاري.. فقير جاهل . واناك كاهن عالم ، تقي ، نقي .

ـ والى اي حد تتصل هذه الجسارة؟ هذه الوقاحة ؟

ـ الى حيث تنتهي فضيلتكم الكاذبة .

ـ الله يطرد الشيطان .

ـ آمين !

ـ اصمت ، يالعين !

ـ مبارك انت يامحترم !

ـ اصمت ! اصمت ! !

ـ انت خادم الله يامحترم .

ـ لاتضطرني ان اخاطبك بغير لساني .

= انت بحر الصبر والفضيلة يامحترم .

= لاتضطرني ان ارفع عليك يدي .

= تبارکني بنقمتك . وانا السعيد ، وان كنت لا آكل جسد الله كل يوم .

= احمل هذه العصا للكلاب وانت ...

رفع الكاهن اذ ذاك عصاه وضرب المكاري . فاقتبل الضربة هادئاً باسماً ، وهو يقول :

اضربني ضربة ثانية ، وضربة ثالثة . اضربني يا اخي . هوذا خدي الايسر . قد برهنت على انك مثلي انسان ، ولست بكاهن . فصرت احبك واجلك . اضربني او عانقني ، واحدة من الاثنتين . ارمني خارج العربة ، او ضمني الى صدرك . لا اقبل منك غير واحدة من الاثنتين . انت اخي ، وانا احبك ، واجلك ، واشعر بما تشعر به . فهل لك ان

تحبني ، وتجلني ، وتشعر بشيء من شعوري . اذن تعال اقبلك فتقبلني قبلة الاخاء والمحبة... لماذا انت صامت ساكن؟ لماذا لاتقبلني ؟ لماذا لاتضربني؟ لماذا لاتبصق علي ،وتلعنني ، ثم ترفسني ؟ ...قد اهنتك ،وذلك حباً بك . اذن انا احبك. اذن انت اخي . والاب الذي في السموات هو ابو الناس كلهم . فلماذا لاتقبلني ولا اقبلك قبلة الاخاء ؟ انت لاتزال انساناً مثلي ، وانا لا ازال مسيحياً مع كل بغضي لحدام المسيح في هذا الزمان .

كان المكاري يتفوه بهذه الكلمات والحرارة كالحمى تورّد وجنتيه وتعقد العرق على جبينه ، فيبدو وجهه حيناً كوجه المصروع ، وحيناً كمن يسيطر عليه الوحي الاعلى. هو وميض برق الهي ينير القصد الذي قصده ابو طنوس ساعة صعد الى العربة . وهي ذي الساعة التي يرتفع فيها

أطل القمر من وراء الجبال ، فانارت اشعته الطريق ، طريق المتخاصمين ،

(ص ٣٩)

مثل هذا الرجل الى اقصى درجة من الكمال البشري. هي الساعة التي يستحيل الانسان فيها الها . هي ساعة الانبياء عندما جاءوا بالمعجزات . هي ساعة المسيح في ابي طنوس . اجل ، منذ صلب الناصري الى هذه الساعة لم يدر انسان خلده الايسر بنية اسلم من نية ابي طنوس ، وبقصد اشرف من قصده .

وماذا فعل الكاهن . لاحاجة الى ان نقول ان سلوك ابي طنوس ادهشه ، اذهله ، بل رماه في بحر من الهواجس والتحير . وما هي الطريقة التي يتخذها ؟ ما هو الجواب الذي يؤديه ؟ ماهي الحيلة في الخلاص من هذه الورطة العظيمة ؟

اطل القمر بدراً من وراء الجبال ، فتلألأت اشعته بين الاشجار ، وبسطت الصخور ظلالها في فيض من نوره

القضي ، وانارت الطريق ، طريق المسافرين المتخاصمين ، بجاء القمر ، بما فيه من بهاء وجمال ، يوفق بين الاخوين ، ويضيء بنوره الهادئ طريق السلام والحب . فهل افلح عمله؟ ليجاوب الكاهن . ليجاوب ابو طنوس . ليجاوب الحوذي .

ولو تلفت الحوذي في هذه الساعه ، وشاهد وجه الكاهن ، لكان ينزله في اول بيت يصل اليه ، ويسأل اهل البيت الاعتناء به . ان وجهه لوجه منكسر ، مغلوب ، بل وجه مريض يغالبه الموت ، وجه من اغمي عليه .

اما ابو طنوس فلبث ساكتاً ساكناً الى ان افاق الكاهن من سباته ، وامر الحوذي بان يقف .

وقفت الخيل فنزل الكاهن من العربة دون ان ينظر الى ابي طنوس ، ودون ان يفوه بكلمة واحدة . وبعد ذلك صفر سوط الحوذي ، وصوّت على ظهر الخيل ، فجرت

دواليب العربة مسرعة ، وتنهد ابو طنوس تنهدات يعسر تفسيرها الا اذا استعنا بالكاهن .

لنتأثره اذن . وها هو ذا في الطريق ، يتوكأ على عصاه ، مطأطىء الرأس . هو يمشي وفي صدره تتزاحم الهواجس فتشتعل رجليه : يمشي وفي صدره تلتهب نار ثورة روحية . وكأنه ، وهو يمشي في احلامه ، أحس يد تقرص اذنه فصاح مذعوراً صيحة المتألم ، وشرع ينادي ابا طنوس . — يا ابا طنوس ! يا عربجي ؟ يا عربجي ؟ وقف! ولكن العربة كانت قد توارت بين اشجار التوت ، ووراء البيوت . نحن الان في قرية .. اما الكاهن فظل يعدو وهو ينادي اباطنوس حتى خارت قواه ، فوقع في الطريق كالمصروع .

هل رآه احد غير القمر ؟ نعم . ان اكثر البيوت في الجبل تشرف على طريق العربات . تمر الطريق تحت شرفاتهم

فيراقبون العربات في ذهابها وايابها . فلما دخلت عربة ابي طنوس قرية ... خرجت امرأة الى شرفة بيتها فسمعت الصوت الذي عرفه القاريء ، فحولت بنظرها الى الناحية التي صدر منها ، فرأت هناك شبحاً اسود يرسف رسفاً الى القرية . وما هي الا برهة حتى وقع الشيخ في الطريق ، فهرولت اليه وبيدها ابريق من الماء .

ولشد ما كانت دهشتها عند ما رأت وجه الصريع فرفعته عن الارض ، وهي تنادي الكاهن باسمه .

خوري يوسف . يا خوري يوسف .

رشت على وجهه الماء واسقته من الابريق فانتعش ، ثم ساعدته فاستوى واقفاً .

— وما ذا جرى يا خوري يوسف . ولماذا لم تركب في العربة ؟ هل جئت ماشياً من بيروت ؟

ـــ كلا يا بنتي . خرجت من القرية وبي صداع شديد ، فمشيت استنشق الهواء . كثر الله خيرك يا بنتي . لا . لا . سأذهب الى بيتي . عودي انت الى بيتك ، وصلي من اجلي ، صلي من اجلي . لا . لا . سأذهب وحدي . سامشي قليلا على هواء الليل يشفي صداعي . اعطيني الابريق .

شرب الخوري يوسف ، واعاد الابريق اليها شاكراً .

عادت المرأة الى بيتها ، ومضى الكاهن في سبيله ، فاستمر ماشياً حتى وصل الى زيتونة خارج القرية منفردة . وكان القمر قد تكبد السماء ، فلجئ تلك الشجرة بضيائه ، فتألف تحتها من الاشعة والاخيلة ما يستغوي التقي الطالب في قلب الطبيعة مكاناً للتأمل . وهناك ، تحت تلك الزيتونة على سجادة من الاخيلة والانوار حاكها القمر ، خر الكاهن ساجداً وطفق يصلي .

القسم الرابع

بعد ان نزل الكاهن من العربة نقل ابو طنوس الى جنب الحوذي وسأله قائلاً : اتعرف هذا الكاهن ؟

— ومن لا يعرفه في الجبل ؟

— وما اسمه ؟

— كأنك لا تعرفه ؟ هو الخوري يوسف المشهور .

— المشهور ؟ ما سمعت قبل اليوم بهذه العائلة .

— المشهور ، يعني يا ... سيدي ، المعروف عند كل الناس . وكيف لا تعرفه ؟ ألم يكن لك في زمانك دعوى في الحكومة ؟ اما احتجت مرة الى كتاب توصية من المطران الى المدير او القائمقام ؟ الا تعرف تلك الدار

الكبيرة، القائمة على رأس الجبل الذي مررنا تحته ؟ الخوري يوسف هو يد المطران اليمنى، واذنه اليسرى ، وعيناه الاثنتان . ازيدك علماً . هو منفذ اوامر سيدنا وكاتم اسراره . وسيدنا، طول الله عمره ، لا يرى غير ما يراه الخوري يوسف المشهور — المشهور بثروته ، ودهائه ، ونفوذه ، وقلة علمه ، وقصر نظره ، كما يقول الشيخ ... وعنده احسن نبيذ في الجبل كله ، كيف لا تعرفه ؟ هل انت غريب ؟ ام هل انت متجاهل ؟

— وهل هو متزوج ؟

— نعم ، وله ولدان الواحد يدرس اللاهوت في رومه، والثاني يدرس فنون الغرام على بنات بيروت ، ويخسر من عقله وصحته في كل امثولة يتعلمها .

قدم ابو طنوس سيكارة الى الخوذي ، ثم اشعل

سيكارته وهو يقول : العقل زينة الانسان ، والصحة احسن من العشق بزمان ... بالله عليك تسمعنا صوتك .

تنحنح الحوذي ثم بصق ، ثم بصق ثم بصق ثم انتهر الخيل وهو يكرر العملية تمهيداً للموال البغدادي . ثم اطلق صوته الحماري في الفضاء فرقصت الاطيار ، وتمايلت طرباً غصون الاشجار . وبينا هو طائر على اجنحة « موال » ، غير مكترث بالتمر الذي سد اذنيه بغيوم هي كالقطن بيضاء ، أخرج ابو طنوس اوراقاً وقلماً من جيبه و كتب كلمة على قصاصة ، ثم طواها واعطاها الى الحوذي قائلا : اكون ممنوناً لك اذا وصلت الورقة الى الخوري يوسف .

ـ على عيني ورأسي !

ـ وهذا بشلك اجرتك .

ـ كثر الله خيرك !

ـ غداً صباحاً .

استمرت العربة سائرة في نور القمر الفياض ، وهي تختفي تارة بين اشجار التوت ، وطوراً في غابة من الصنوبر حتى وصلت الى القرية ... فوقفت هناك فنزل ابو طنوس ، وانزل اغراضه كلها ، فتأبط بعضها ، وحمل الاخرى على كتفه في عقفة عصاه ، وهو يودع الحوذي ويذكره بالوسالة الى الخوري يوسف .

ـ كن مطمئن البال .

ـ غداً صباحاً .

ـ ستصله ان شاء الله قبل القداس

القسم الخامس

احيا الخوري يوسف ما تبقى من الليل في الصلاة ، فظل ساجداً تحت الزيتونة الى ان ودع القمر السماء فنهض اذ ذاك وهو يشعر بالم في ركبتيه ، ويرتعش من هواء الفجر البارد .

هي ساعة الفجر الواقف بين القمر والشمس صفر اليدين ، يشيع نوراً ويبشر بنور . هي ساعة الفجر التي تتقدم الحادث الذي حدث كل يوم ، منذ كانت الارض ، وظل جديدا . كيف لا ، وكل نهار هو غير النهار السابق . كل نهار هو نهار جديد .

في هذه الساعة اليتيمة الشريدة ، التي لا تُعد من الليل ولا من النهار ، جلس الكاهن على صخرة ، بين

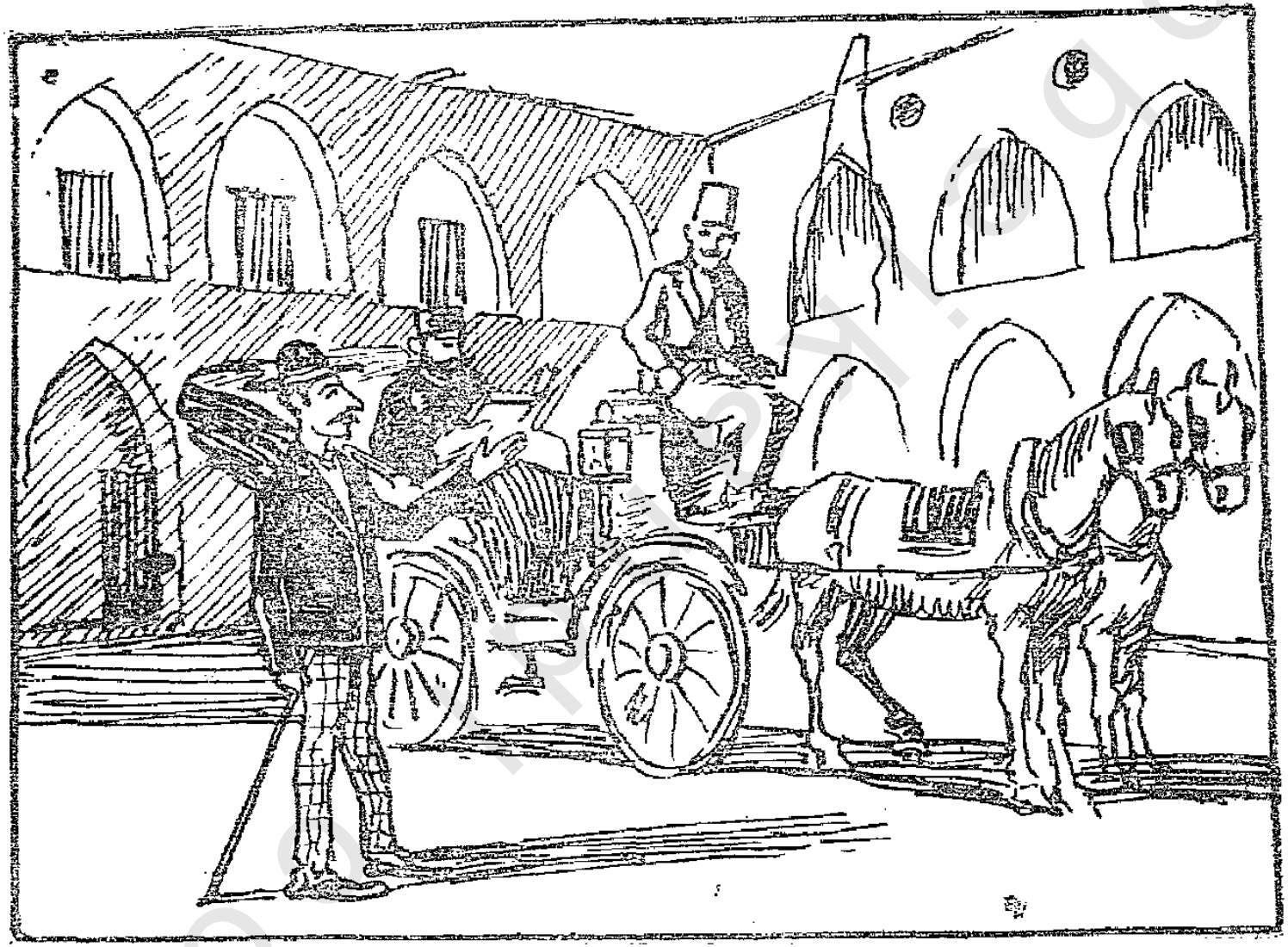

ولكن ابا طنوس، عندما رأى الكاهن ، امتنع وقال في نفسه : « الله يطرد الشيطان ! »

الزيتونة والطريق ، يفحص ضميره ويتأمل حاله . وفي مثل هذه الساعة ، ومثل هذه الحال ، يتصل فجر حياة الانسان بفجر العالم ، فيحلم اذا كان نائماً الاحلام القريبة من الحقيقة ، ويصور الحقيقة ، اذا كان مستفيقاً ، في اشكال تقرب من الاحلام .

وفي مثل هذه الساعة ايضاً يفنى ويتجدد جزء كبير من الجنس الانساني . وبكلمة اخرى ان حوادث الموت والولادة ـ او اكثرها ـ تحدث ، كما يقول العلماء والاطباء ، في ساعة الفجر . في هذه الساعة اذن يكتب القبر والمهد اسميهما في سجل الله ، ويفترقان بعد اجتماعهما ، وكل واحد منهما يقول : وكان سلامه علي وداعاً .

هي ساعة التحول والتجدد ، ساعة يقبل الموت الحياة فيريحها من القديم البالي ومن الفاسد العقيم ، وساعة تجيء

الحياة بالجديد الطاهر ، السليم ، النشيط ، الجميل . فيحسن الموت العمل ، وتحسنه الحياة .

وفي ساعة الفجر تتجدد قوى العالم ، وتنمو افكار الانسان نمواً خفياً كما تنمو الاشجار . في هذه الساعة تحدث اكثر الانقلابات الروحية وتضطرم الثورات في الانفس المضطربة الحائرة . ذلك لان الاحلام (احلام النوام) تدنو فيها من الحقائق ، والحقائق (حقائق المستفيقين) تدنو من الاحلام .

اجل ، ان في هذا الفجر الرمادي الفضي سراً للعالم ، وسراً للفيلسوف ، وسراً للشاعر . فالاول ينشد مفتاح السر في الاحصاءات والحقائق الحسابية ؛ والثاني يبحث عنه في المشاعر والعواطف البشرية ؛ والثالث يكتشفه في الاحلام والتصورات الشعرية .

ان الخوري يوسف الان لفي فجر نفسه المضطرب. انه لفي الساعة التي يتصارع فيها الماضي والحاضر. فهل يزوره الموت لياخذ مافسد وعقم من اعماله؟ وهل تحييه الحياة الجديدة فتكتب له الطاهر السليم الجميل من المقاصد والاعمال؟ أينجلي ليل حياته كما انجلت الليلة التي احياها في الصلاة؟ أيحمل نفسه، في هذه الساعة اليتيمة الشريدة، الى النهار القريب الانبثاق، ام يعود بها الى الليل الذي لا تعد الان منه؟ وبكلمة اخرى، هل ينبذ ما اجتناه واقترفه في ماضي حياته، ام هل يحافظ على ثروته ويتمسك بمنصبه، شغفاً بالسيادة والمجد الباطل؟

ظل الخوري يوسف جالساً على الصخرة، وهو في بحر لجب من الهواجس تتقاذفه امواجه، حتى بدأت الغزالة ترسل خيوطها الذهبية من وراء الجبال، فتخللت نسيج

الفجر المتبسط في الاودية والغابات ، وفوق الربى والمروج ، فاستحال رويداً رويداً سربالاً عصفرياً شفافاً تكاد ترى خلاله حتى اعصاب النهار وهي تختلج جذلا . ونفذت الغزالة بسحرها الى قلب الكاهن فاختلج اختلاج النهار ، فوقف ناشطاً مليباً ، وهتف تائلا وهو باسط يديه الى السماء:

«المجد لله وحده — المجد والحول والطول لله !»

ثم مشى الى بيته . وبينا هو في الطريق رأى العربة التي ركب فيها المساء البارح ، وهي عائدة صباح ذاك اليوم الى بيروت . فوقفت عندما قربت منه ، ونزل الحوذي وبيده رسالة اعطاه اياها قائلا : «من بو طنوس يا محترم ، رفيقكم الليلة البارحة» .

عرته الرعشة عندما سمع اسم ابي طنوس . ولكنه ملك نفسه فشكر الحوذي بكلمات دلت على انه ذو حادثة

الليلة البارحة ، واستمر في طريقه الى البيت . فبادر عند وصوله الى غرفته الخاصة واخرج الكتاب من جيبه ليقرأه .

قرأه اولا وثانياً ، ووضعه على المنضدة . ثم تناوله بيده وهو في ذهل وحيرة فقرأه ثالثاً ورابعاً . ثم نهض فوراً فبادر الى الباب فاقفله وعاد فرمى بنفسه على الديوان وهو يرتعش ويجهش كالطفل الرعيب .

فكأنه رأى نفسه ، وهي عارية ، تجلد امامه ، تجلد بسوط الضمير ، وسوط الخوف ، واسواط التوبة .

ساعة من هذه الهواجس المخيفة المؤلمة ، ثم وقف امام منضدته فكان نظره اسرع الى الكتاب المقدس منه الى سواه ، فتناوله بيديه ، وفتحه على الالهام ، فقرأ ما يلي :

« اما انتم فلا تدعوا معلمين ، فان معلمكم واحد ، وانتم

جميعاً اخوة . ولا تدعوا اليكم اباً على الارض ، فان اباكم واحد هو الذي في السموات . ولا تدعوا معلمين ، لان معلمكم واحد المسيح » (متى ٢٣ : ٨ ، ٩ ، ١٠) .

اطبق الكتاب وهو يردد هذه الكلمات : « ولا تدعوا لكم اباً على الارض فان اباكم واحد هو الذي في السموات » .

ثم فتح الكتاب ثانية كما فتحه المرة الاولى ، فبدت صدفة امام عينيه هذه الكلمات :

« ومتى صليت فلا تكن كالمرائين فانهم يحبون ان يصلوا قائمين في المجامع ، وفي زوايا الشوارع ، لكي يظهروا للناس . واما انت فمتى صليت فادخل الى مخدعك ، واغلق بابك ، وصلِّ الى ابيك الذي في الخفاء » (متى ٦ : ٥ ، ٦ ، ٧) .

وبعد الكتاب المقدس قرأ للمرة السادسة او السابعة كتاب ابي طنوس ، وهو سطران اثنان لاغير :

اذكرني، يا اخي، في صلاتك الى ابينا الذي في السموات،
وسأذكرك انا في صلاتي.

اخوك

ابو طنوس

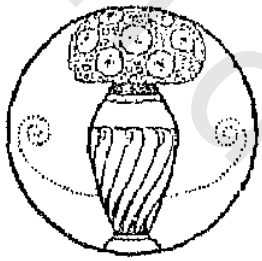

obeikandl.com

القسم السادس

كان والد الخوري يوسف يحدث عن والده فيقول: «كثيراً ما كان والدي يروي من اخبار اخيه القسيس ونوادره. وكان ذاك القسيس عمي رجلاً صالحاً ورعاً، يؤثر العمل على القول، وحتى على الصلاة.

وقد كتب جد الخوري يوسف شيئاً من اخبار اخيه في الكتاب المقدس، ذلك الارث القديم في بيته، كما يكتب اللبنانيون فيه تواريخ الوفيات والولادات في عائلاتهم.

فذكر الكاهن، بعد ان قرأ تلك الكلمات من انجيل متى، ما هو مخطوط على داخل جلد الكتاب عن نسيبه القسيس الورع الصالح، فعاد اليه وقرأه بصوت مرتفع، هادىء، موزون، كما يقرأ الانجيل في القداس.

« خرج القسيس من البيت صباح هذا اليوم، يحمل كيسا فارغا ليطوف في القرى مستجدياً باسم السيد المسيح ومن اجل الفقراء . يوم كل اسبوع، يوم الشحاذة الذي وقفه القسيس على الفقراء والمحاويج . وهو في اليوم التالي يطوف في البلدة وفي القرى المجاورة لها فيوزع على الفقراء ما يجمعه في اليوم السابق من الدراهم والخبز والدقيق ... والذي يأخذ هو مثل الذي يعطي ... والشحاذ المحب للخير، العامل خيراً لوجه الله ، هو مساوٍ بفضله لاكبر المحسنين ».

عندما انتهى الخوري يوسف من تلاوة هذا الانجيل الجديد سأل نفسه قائلا :

ولماذا خط جدي هذه الكلمات على جلد هذا الكتاب؟ ليقرأها اولاده واحفاده ، ولا شك ، وليقتدوا بنسيبهم القسيس الصالح . وهل فعل ذلك احد منا يا ترى ؟ كلا .

ادن نحن هالكون . انا الخوري يوسف هالك لا محالة ، وللمكاري الملكوت ، للمكاري النعيم الابدي . ولكن الفرصة امامك . مافات الوقت . وما زال في عروقك نبض ينبض ، وما زال في رماد حياتك جمرة تشتعل ، خذها واضرم بها ناراً جديدة . انبذ الماضي الذي فيه هلاكك ـ انبذه وانسه . . . أبنِ لنفسك بيتاً في السماء . . . اترك منصبك طالق مطامعك . . . اقتل تنين الانانية فيك . . . فكر في امر جارك واخيك ولو يوماً واحداً في حياتك . . اصغ الى صوت المعلم له المجد ، اسمعه يقول : ولا تدعوا لكم اباً على الارض لان اباكم واحد هو الذي في السماوات . اسمعه يوبخك قائلا : صلِ في مخدعك وليس كالمرائين ليراك الناس . واذكر جدك الذي يحدثك عن اخيه القسيس ـــ ذلك الشحاذ المحسن ـــ واذكر اباطنوس ، احد اخوانك الفقراء ،

الذي يتقبل الضربة منك ، ويدير لك الخد الايسر — ثم يكتب اليك ليسألك ان تصلي من اجله ! الله .. الله ...!

لطم الكاهن خديه وهو يجهش ويهتف : ارحمني يا الهي ارحمني ! ارحمني رحمتك للنبي داوود . قال هذا وطفق يتلو المزمور الواحد والخمسين . ثم قال وهو يلطم خديه ثانية : انا الخاطىء انا الاثيم . انا المسيحي الكاذب . فهل ادرت مرة هذا الخد او هذا الى المعتدي علي ؟ هل عملت الخير مرة من اجل الله وحباً بالانسان . هل ذكرت مرة في صلواتي الى القديسة تريزا انها كانت تطلب من الله ان يطفىء نيران الجحيم وانوار السماء لكيما تصنع الخير من اجل الخير فقط ؟ وهل خالفت مرة اوامر استفي رفقا بالمظلومين والمساكين ؟ وهل احببت مرة قريبي كنفسي ؟ ولماذا ضربت المكاري عندما كان يسألني هذه السؤالات ؟

ارحمني يارب ارحمني انا الذي ما فكرت بغير نفسي ،
ومصلحتي ، ومطامعي . انا الذي بذلت جهدي كله في سبيل
الجاه والمال والمجد الباطل . انا الذي كنت اسعى لان البس
الارجوان واحمل العصا المذهبة . ارحمني واغفر لي
يا من رحمت النبي داوود وغفرت له . واني منذ الان
اوقف على البر وعلى الحقيقة ماتبقى من ايامي . ضربت
المكاري فادار لي الخد الايسر .. ان في تلك الضربة خلاص
نفسي — ان في تلك الضربة ونتيجتها امثولة للخاطىء مثلي .
نعم — سأسلك مسلكا جديداً ولو يوما واحداً من حياتي .
سأحل قيودي ولو قبل موتي بيوم واحد . ساحرر نفسي
واكون خادما لاخي الانسان . ساعة في عمل الخير خير من
سنين في سبيل المجد الباطل ... الهي ، ساصلي اليك وانا
في مخدعي ، الهي ، سانبذ الكهنوت واللاهوت واعود الى

اقوال المعلم له المجد . وسابذل في يوم واحد ، من اجله ، ماجمعته في ثلاثين سنة ... وسأشتري غداً ...

وقف الخوري يوسف مطرقاً ، ثم قال : وماذا يقول المطران ؟ وماذا يقول البطريرك ؟.. لا يهمني ما سيقال هنا وهناك . الهي قبل اسقفي — وقبل بطريركي... ولكن علي ألا انسى ابني الذي يتعلم اليوم ليكون مثلي . علي ان انقذه مما هو فيه . علي ان انصحه في الاقل واحذره من المسلك الذي سلكته انا ، وهو يرغب به ، ويعمل الان من اجله. نعم . نعم ساكتب اليه .

قال هذا وجلس الى منضدته وكتب الى ابنه في مدرسة « انتشار الايمان » برومه هذا الكتاب .

ولدي العزيز حرسه الله .

انا اليوم في فيض من النور ، وقد كنت في لجج من

الظلمة . واني اكتب اليك لاقول انك تضيع ايامك وشبابك في تحصيل العلوم اللاهوتية لتصير مثل ابيك وتسلك مسلكه الكهنوتي . اسمع يا ابني كلامي وانتصح بنصيحتي . فاذا كنت ترغب في خدمة السيد المسيح ، له المجد ، فاخدمه كما خدمه الرسل الابرار . واستمع يا ابني اقواله قبل ان تستمع شروح اساتذة اللاهوت وتفاسيرهم . افتح العهد الجديد (متى ٦ : ٥ ، ٦ ، ٧) ، واسمع الهنا يقول :

صلِّ في مخدعك وليس كالمرائين في المعابد وعلى زوايا الشوارع . واقرأ ٧ ، ٨ ، ٩ من سفر ٢٣ يتضح لك يا ابني العزيز ان رتبة الكاهن غير محللة في كتاب الله ، فلا يحق لك ان تكون ابا روحيا للناس . بل انت اخ للناس اجمعين . كما ان الناس كلهم اخوان لنا . وما اراد السيد المسيح ان يؤسس كنيسة على الارض . فهو يكره المظاهرات ، ويأمرنا

في هذه الساعة اليتيمة الشريدة ، التي لا تعد من الليل ولا من النهار ، جلس الكاهن على صخرة ، بين زيتونتين على الطريق .

(ص ٤٨)

بان نصلي سراً . ان الكنيسة اذن لبدعة من البدع . هي من صنع الرؤساء ومن الوسائل وسائلهم لجمع المال . فلا تكن يا ابني منهم . وقد لاتوفق في حياتك الى من ينقذك مما تكون فيه من المآثم والمفاسد الكهنوتية . كن من الناس يا ابني واخدم الناس كما خدم بولس سيده المسيح . كن محباً للخير ، عاملاً في سبيله . وكن شفوقاً سموحاً على الدوام . وبعد ذلك يا ابني لك ان تكون ملفانا . اسلك مسلك الحق ، والورع ، والصلاح ، والصدق . واياك والخداع واياك والتمويه . لاتعلّم مالا تعتقده صحيحاً . لاتبشر بما لا تتيقن فيه الخير كل الخير للناس . لاتخن ضميرك . ولا تجحد الرب الملك . واعلم يا ابني انك لا تستطيع ان تسلك هذا المسلك الشريف اذا كنت كاهناً . فانصح بنصيحة ابيك وعد الى بيتك تجد فيه من اسباب العمل ما يكفيك ان شاء الله .

بعد ان ارسل الخوري يوسف هذا الكتاب الى ابنه يرومه ، خرج من بيته وقد عزم عزماً صادقاً ان يقتدي بنسيبه القسيس ، وان يشارك اخيه المكاري .

وبعد اسبوع شاهده احد ابناء القرية في الطريق يمشي ورفيقاً له ، وراء قافلة من البغال .

كان الخوري يوسف يشتري الدقيق ويدفع ثمنه من ماله ، وكان المكاري ابو طنوس شريكاً له في العمل .

وما هو ذلك العمل ؟ كان المكاريان الصالحان المحسنان يوزعان الدقيق مجاناً على الفقراء والمحاويج

واستمرا في هذا الاحسان اسبوعين لاغير . ذلك لان « جحود » الخوري يوسف احدث ضجة في الجبل ، وخصوصاً في الدوائر الاكليريكية ، فاستدعاه البطريرك للمحاكمة ، ثم استرضاه ، كما قيل ، وابقاه في المقر

القدسي .

على ان الحقيقة هي انه اختفى ، بعد المحاكمة ، وانطفأ ذكره . وقد راجت بعد اشهر اشاعة في الشمال انه موجود في دير قزحيا بل في مغارة الدير المظلمة ، المعدة للمجانين . ثم أثبتت الاشاعة . أثبتها واحد من اولئك المساكين الذين يحملهم اهلهم او يجرونهم الى تلك المغارة في الدير ليشفوهم من « الجنون » . فقد فرّ ذلك « المجنون » هارباً ، ثم أفشى خبر رفيقه هناك ، الخوري الجاحد ، الخوري يوسف يواكيم .

قال « المجنون » الفارّ محدثاً عن « المجنون » الشهيد :

كان الرهبان يجيئون صباح مساء فيضربوننا على رؤوسنا بالاحذية ليخرجوا الشياطين منا ، وكانوا يضربون «الخوري» بالعصي ايضاً . وقد اشبعوه ذات ليلة ضرباً حتى لم يعد

يستطيع الصياح او البكاء . . . فكروا في تلك الليلة قيودي ونقلوني من المغارة كي لا اشاهد نتيجة توحشهم . وعندما فررت ساعة الفجر من الدير رأيت بعض الرهبان يدفنون جثة في حفرة حُفرت خارج المقبرة .

انتهت

obeikandl.com

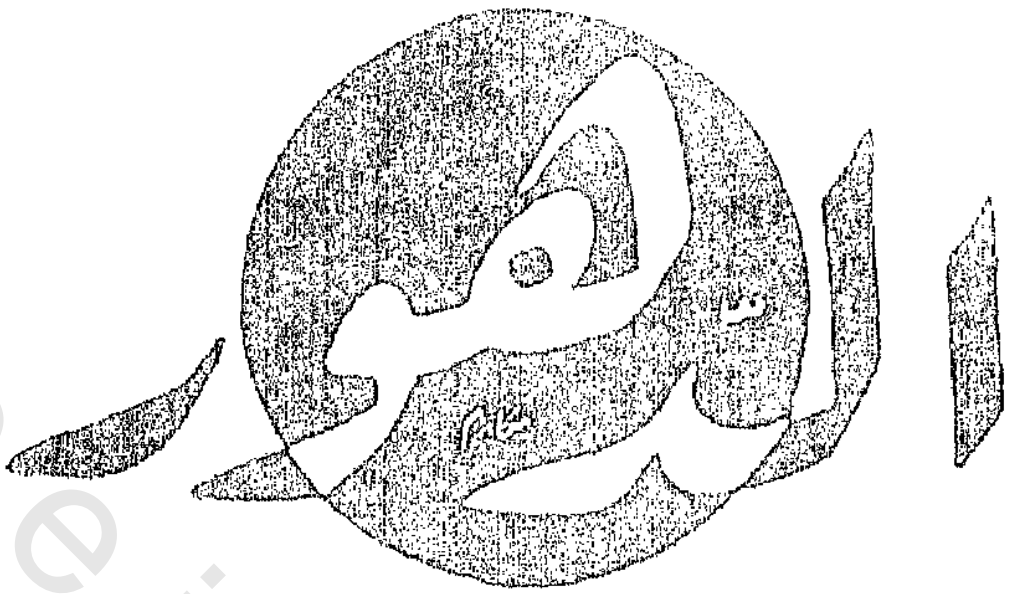

رئيس تحريرها سليم خياطه

مجلة الطلائع العربية المصورة

ينشر فيها لفطاحل الشرق والغرب

اشتراكها زهيد

مادتها : تنتخبها وتقدمها هيئة تحرير مؤلفة من عشرين اديب كبير

وعنوانها : « جماعة التحرير الفكري »

شهرية — تقدم هديتين نفيستين في السنة — تحفة بكل مافيها

obeikandl.com

مطبعة الفن الحديث ـــ بيروت ـــ ١٩٣٤

obeikandl.com